

زمن الخيول البيضاء (الملهاة الفلسطينية)

ابراهيم نصر الله، الدار العربية للعلوم "الناشرون" (الطبعة الخامسة) بيروت ٢٠١١.

قراءة عبد الفتاح القليلي

اعتدت ان اعرض الكتب السياسية والفكرية اكثر من ان اعرض الروايات خاصة في مجلة دورية او فصلية مثل مجلتنا هذه، ولكن هذه الرواية (الصادرة في طبعتها الاولى في آواخر العام ٢٠٠٧ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، وتقع الرواية التي صمم غلافها ورسوماتها الداخلية الفنان التشكيلي البحريني احمد باقر في ٥١٠ صفحات من الحجم المتوسط)، فرضت نفسها علي وعلى المجلة، فلماذا؟

لأنها تنتمي الى الادب الفلسطيني الواقعي. وسنقدم مقدمة مقتضبة للادب الواقعي:

سئل نجيب محفوظ "اي رواياتك ستعيش اكثر بعدك، ولماذا؟". اجاب نجيب محفوظ: "ثلاثيني (بين القصرين، قصر الشوق، السكرية)، وذلك لأنها ادب يؤرخ لمرحلة، لأنها ادب واقعي. والادب الواقعي فرض نفسه في الرواية في منتصف القرن التاسع عشر، واول مبادئه "انه على الروائي، قبل كل شيء، أن يدرس مظهر الأشخاص، ويسألهم، ويمحص أجوبتهم، ويدرس مساكنهم، ويستجوب الجيران، ثم يدون حججه واضعا حدا لتدخل الكاتب إلى أقل درجة ممكنة، فيكون المثال اختزال مقاصد الأشخاص، وإن الملاحظة الدقيقة هي عمل الروائيين الأساس (١).

وابراهيم نصر الله، كأنه يعلن التزامه بتلك القوانين حينما يقول في بداية روايته هذه: "في العام ١٩٨٥ بدأت العمل عليها إعدادا وتسجيل شهادات، وتكوين مكتبة خاصة بها. ولكن افضل ما يحدث ان الامور لا تسير حسب رغباتنا، اذ اصبح العمل الطويل عليها هو الباب الذي سُدخل منه خمس روايات ضمن هذا المشروع، وبهذا فإن الرواية التي كان من المتوقع ان تكون الأولى

اصبحت الاخيرة " (٢).

حينما يُذكر "فريدريك انجلز" تقفز للذهن صورته كأكبر مثقفي عصره واقربهم على الاطلاق من المفكر الكبير "كارل ماركس"، ولكننا نجده يقول عن الروائي الفرنسي "بلزاك" (استاذ الواقعية): "قد أعطانا في الكوميديا البشرية تاريخا واقعيًا ممتازا للمجتمع الفرنسي، وصف فيه بدقة بالغة الفترة ما بين ١٨٤٨-١٩١٦. عاما بعد عام تقريبا، حيث قدم لنا لوحة تاريخية تعلمتُ من تفاصيلها الصغيرة مادة اقتصادية أعظم من كل ما قدمه المؤرخون ومحترفو الاحصائيات عن هذه الفترة" (٣).

ومن الجدير ملاحظته ان بلزاك جمع رواياته كموسوعة بعنوان "الكوميديا البشرية". وابراهيم نصر الله اعطى روايته هذه عنوان "الملهاة الفلسطينية"، فكانت الرواية كما قالت عنها سلمى الخضراء الجيوسي "الإلياذة الفلسطينية، لانها "تاريخ دقيق، غاية في الحساسية والتصوير المبدع للوضع الفلسطيني منذ ابتدأت نكبته بالاحتلال العثماني حتى اكتملت نكبته بالاحتلال الصهيوني سنة ١٩٤٨".

النكبة لم تبدأ عام ١٩٤٨، كما يعتقد المؤرخون، فقد بدأت منذ وطأ "الحافر" العثماني ارضها المقدسة، كما يكتشف المبدعون. وتكشف الرواية بوضوح اسباب النكبة وملابساتها وظروفها الطاغية.

تفرغ ابراهيم نصر الله ليسجل مآسي الشعب الفلسطيني: كيف حصلت، وكيف واجهها. وافترض ان بناء مقاومته لاعدائه (كأي بناء آخر) يقوم على اربعة اعمدة: مقاومة الحكم العثماني، ومقاومة الاستعمار البريطاني، ومقاومة الاستيطان الصهيوني، ومقاومة الطبقة القاهرة لشعبها (وخيواله الاصيله) بالتعاون مع اعدائه الثلاث، كل في اوج غطرسته. فمثلا كان "حمدي يقاتل الى جانب العثمانيين في غزة، ولما رأى كفة الانجليز ترجح، غير اتجاه "فوهة بندقيته نحو زملائه، وصار مع الانجليز ضد الاتراك، ثم صار عميلا للانجليز ضد اهل قرية "الهادية" (ص٢٦٥). استطاع الكاتب ان يصل الى هذا المستوى من الاطلاع والشمول لانه راح يجمع شظايا الرواية الفلسطينية، ويعيد بناءها. ولكن الذي حدث، ان الامور سارت عكس رغباته، إذ ظهر له أن هذا البناء ليس "المأساة الفلسطينية" بل هو "الملهاة الفلسطينية". لم يحبطه ان الامور سارت على عكس ما توقع، بل قال في بداية روايته (ص٥) وان "افضل ما يحدث أن الامور لا تسير حسب رغباتنا (نحن الكتاب) دائما". كما انه اوضح في نهاية روايته (ص ٥٠٩) ان الملهاة قد تكون بمعنى "الأنس" او بمعنى "الاقتراب من الشيء". وفعل "لها" يعني انشغل، اي: "لها به" انشغل به، و"لها عنه" انشغل عنه. وربما قصد الكاتب من "الملهاة الفلسطينية" كل هذه المعاني المتناقضة. فقد انشغل الفلسطينيون عن قضيتهم

واعمدتها الرئيسة، كما انهم انشغلوا بها عن انفسهم وقضاياهم الشخصية... ولمعاصرة الاحتلالات الثلاث، تدرج الكاتب في شخصيات روايته لاجيال ثلاثة : الحاج محمود، ثم ابنه خالد، ثم محمود ابن الحاج خالد، وكل جيل كان يسلم الراية دون ان يركع للجيل الذي يليه: من الجد الى الابن الى الحفيد. ولكن، على ما يبدو ان ابراهيم نصر الله، اراد ان يقول في روايته " زمن الخيول البيضاء" كما قال ناجي علوش في كتابه "الحركة الوطنية الفلسطينية": "لقد خاض الشعب الفلسطيني نضالات رائعة، باءت جميعها بالفشل".

هناك الكثير من المقدمات و التمهيدات التي تتقافز في الذهن عندما يفكر المرء بتقديم عرض و قراءة لعمل مهم و كبير كرواية " زمن الخيول البيضاء " للشاعر و الكاتب الفلسطيني ابراهيم نصر الله، تلك الرواية التي توج بها سلسلة من الروايات الوطنية الشعبية أسماها "الملهاة الفلسطينية" حيث كانت (زمن الخيول البيضاء) السادسة بعد عدة أعمال هي :

"طيور الحذر" التي ألفها عام ١٩٩٦م

و "طفل الممحة" التي ألفها عام ٢٠٠٠م.

و "زيتون الشوارع" التي ألفها عام ٢٠٠٢ م

و "أعراس آمنة" التي ألفها عام ٢٠٠٤م

و "تحت شمس الضحى" التي ألفها عام ٢٠٠٤ م

ثم جاءت "زمن الخيول البيضاء" لتكون مسك الختام لهذه السلسلة حيث أنها عام ٢٠٠٧ م. لقد تم ترشيحها لا حقا لجائزة بونكر للرواية العربية إلا أن رواية "عزازيل" للكاتب المصري يوسف زيدان كانت هي التي احتلت المركز الأول في الجائزة. وذلك طبعا لا يقلل من قيمة الرواية التي نتحدث عنها.

وهنا لا بد من التذكير بأن "أعمال نصر الله تتوزع بين الشعر والرواية، فقد صدر له اكثر من خمسة عشر ديوانا شعريا حتى الآن، وروايته هذه (زمن الخيول البيضاء) هي روايته الثامنة، وترجمت اعماله الروائية الى الانجليزية، والايطالية، والدنماركية، والالمانية، كما ترجمت بعض قصائده للغات اخرى منها البولندية، والتركية، والفرنسية، والالمانية، والاسبانية، والايطالية. وقد حصل على عدة جوائز مرموقة عن اعماله الشعرية والروائية" (٤).

.. يقول الكاتب في ملاحظاته التي سجلها في بداية العمل ما نصه : "أنجزت العمل على جمع الشهادات الشفوية الطويلة التي أفادت منها " زمن الخيول البيضاء " بشكل خاص، بين عامي ١٩٨٥

و ١٩٨٦ حيث قدم فيها عدد من الشهود الذين اقتلعوا من وطنهم و عاشوا في المنافي، شهاداتهم الحية عن تفاصيل حياتهم التي عاشوها في فلسطين، و من المحزن أن هؤلاء الشهود قد رحلوا جميعا عن عالمنا قبل أن تتحقق أمنيتهم الكبرى بالعودة إلى وطنهم، شهود من أربع قرى فلسطينية حلموا الحلم ذاته و ماتوا الميتة ذاتها : غرباء". واهدى الرواية لارواحهم.

كما اعتمدت الرواية على عدد كبير من المذكرات الشخصية لبعض من عاش في تلك الحقبة التي تناولتها الرواية منها على سبيل المثال ما ذكره الكاتب في ذيل الرواية: "مذكرات محمد عزت دروزة، و كتابه القضية الفلسطينية"، و"في خضم النضال العربي الفلسطيني لبهجت أبو غريبة"، و"مذكرات رشيد الحاج إبراهيم"، و"أعمال الباحث الفلسطيني نمر سرحان"، و "مذكرات فوزي القاوقجي"، وغيرها الكثير من المذكرات، والوثائق، والملاحظات التي سجلها عدد من الباحثين والمؤرخين .. قام إبراهيم نصر الله بحشد الكثير من الأوراق و الشهادات التي ساعدته في تكوين هذا العمل الأدبي الذي يمزج بين الواقعية والخيال .. بين اللغة العامية و الفصحى .. بين زمن الهدوء الفلسطيني والاحتلال الأجنبي .. ومن هنا تأتي قيمتها وأهميتها، فهي تؤرخ لمدة هامة جدا من "عمر" فلسطين..

يدخل القارئ الى الرواية من ثلاثة ابواب، وسمّا كل باب كتابا: كتاب الريح (ص٧)، وكتاب التراب (ص ١٨٣)، وكتاب البشر (ص ٣٩١). اما فصول الابواب فقد اعطاها عناوين تشبه عناوين الافلام او القصائد. كانت الابواب متقاربة السعة، اما الفصول فبعضها لم يتجاوز الصفحتين، بل لم يبلغهما. وكقارئ كنت اتمنى لو وضع في نهاية الرواية فهرسا مفصلا للفصول ليسهل على القارئ مراجعته. ان القارئ للباب الاول يخرج من الناحية الاجتماعية بحصيلة كثيفة ودقيقة من العادات والتقاليد في الريف الفلسطيني بما في ذلك "بروتوكولات" التضييف، واصول صب القهوة للضيوف (ص ٢٠)، وتقاليد طلب الزواج (ص ١٥)، ومحاولة التعايش بين الدينين الاسلامي والمسيحي (ص ٢٣). اما من الناحية السياسية، فيخرج بنتيجة مفادها ان الخروج على الأتراك لم يكن مبررا فقط، بل واجبا، فهم المسؤولون بأعمالهم السيئة عن هدم "دولة الخلافة"، وهم المسؤولون عن دفع سكان ولايات "دولة الخلافة" للتحالف مع البريطانيين ضدهم، أو على الأقل عدم الدفاع عن ولاياتهم أمام الغزاة الجدد. ويختار الكاتب لشخصيات الرواية اسماء ذات دلالة. ف"الهَبَّاب" هو المرابي وملتمزم الضرائب للعثمانيين، ومتعهد بإذلال الناس (ص ٢٧).

أمّا الباب الثاني في الرواية فقد تحدث عن اوضاع البلاد في بداية عهد الانتداب البريطاني. هذا الانتداب هو الذي سهل الهجرة اليهودية الى فلسطين، تمهيدا لاقامة دولة اسرائيل تنفيذًا لوعده

بلفور المشؤوم، ولم يكتف البريطانيون بذلك، بل إنهم سمحوا للعصابات الصهيونية بالتدرب على السلاح وحمله، في حين كانوا يعدمون الفلسطينيين على رصاصة فارغة أو على سكين، كما ان البريطانيين سلموا كافة معسكراتهم وأسلحتهم للعصابات الصهيونية- بما فيها من اسلحة ثقيلة كالدبابات ومدافع الميدان وحتى الطائرات الحربية (ليلة انسحابهم من فلسطين). ويلاحظ القارئ لهذا الباب ان البريطانيين اعتمدوا في بسط سيطرتهم على بعض المنتفذين وجُلهم من الذين كانوا متعاونين مع الأتراك لتنفيذ الاعتداءات والمظالم التي وقعت على الشعب الفلسطيني، كما ان بعضهم كان من الاقطاعيين و"الكمرادور" (البرجوازية المرتبطة بالاحتلال).

كما ان الكاتب طرح بطريقة ذكية، دون مباشرة ودون خطابية، ان الكفاح الفلسطيني تركز في هذه المرحلة على مقاومة وطرد المستعمرين البريطانيين، مع انه كان هناك الوعي الكافي لمخاطر الهجرة اليهودية، وللأهداف الصهيونية في فلسطين والمنطقة، وقد رأينا في اكثر من مشهد كيف ان المقاومين الفلسطينيين لم يقتلوا أسراهم من اليهود الأصليين في هذه البلاد، والذين كانت علاقاتهم أخوية مع الفلسطينيين العرب المسلمين والمسيحيين، ففلسطين مهد الديانات السماوية، وبلد التعدديات الثقافية. وقد استشعر الفلسطينيون كما اليهود من اصل فلسطيني ان الشرور مصدرها اليهود المهاجرون من اوربا، كما تطرق الكاتب الى ان المستوطنين اليهود قد استولوا على أراض فلسطينية شاسعة بالخداع، وبدعم وحماية من المستعمرين البريطانيين.

ويتداخل الباب الثاني " التراب " مع الباب الثالث " البشر ". ففي هذه المرحلة بنى اليهود المستعمرات الاستيطانية، واقاموا الكيبوتسات الزراعية، وبنوا مؤسسات الدولة حتى قبل قيامها . وعندما ثبتت اقدامهم على الارض، بدأوا اعتداءاتهم على القرى والمدن العربية المجاورة، فقتلوا من قتلوا، ودمروا ما دمروا، واستولوا على مساحات جديدة من الاراضي، ونشروا الرعب في البلدات العربية في محاولة منهم لاجبار الفلسطينيين على ترك ارضهم لكي ينجوا بأرواحهم، وكل ذلك بدعم ومشاركة من قوات الانتداب، وبتحالف مع بعض العملاء ورجال الاقطاع .

ومن اللافت في ابواب الرواية الثلاثة ان أحد القواسم المشتركة فيها ان الفلسطينيين قاوموا الاحتلال الثلاثة، الأتراك والبريطانيين، والمستوطنين الصهاينة، وانهم (اي الفلسطينيين) تعرضوا لشتى انواع الاضطهاد والقمع من هذه الاحتلالات .

وعلى مدار " البابين " الثاني والثالث يُلاحظ كيف ان بعض "الرهبان" الاجانب خصوصا اليونانيين منهم، الذين كانوا يرأسون (ولا يزالون مفروضين على ابناء الطائفة الارثوذكسية)، قد استولوا على بعض الأراضي مستغلين جهل وبساطة الأهالي، وقاموا بتسريبها للمهاجرين اليهود الجدد.

والكاتب في روايته لا ينطلق من منطلقات طائفية، بل على العكس من ذلك، ابرز المواقف النضالية للمسيحيين من ابناء الشعب الفلسطيني الذين شاركوا في العملية الكفاحية المناهضة للمستعمرين البريطانيين وللمستوطنين اليهود، وركز على من سقط منهم في معارك الكفاح، كما ابرز المواقف الايجابية والمكافحة لبعض الرهبان العرب، وهو بهذا يؤكد على وحدة الشعب الفلسطيني بمختلف دياناته وطوائفه، ويطالب بطريقة غير مباشرة بتعريب الكنيسة .

وبما انه لا بد للرواية من مكان تدور فيه احداثها، فقد جعل الكاتب غالبية احداث الرواية تدور في قرية " الهادية " التي تخيلها الكاتب، وان كانت هذه الاحداث تمتد في طول فلسطين وعرضها، مع ان الكاتب ذكر اسماء مدن وقرى عديدة حقيقية، بعضها دمره اليهود بعد اقامة دولة اسرائيل، وبعضها لا يزال قائماً. ويبدو ان " الهادية " هي مركز فلسطين، بل هي قلب فلسطين، وما لجوء الكاتب الى "تَحْيُلُ" الهادية الا محاولة كي لا يحصر النضال الفلسطيني في مكان بعينه، فكل قرية وكل مدينة في فلسطين هي الهادية، والعكس صحيح. وقد صوّر الزعامة الوطنية لعائلة الحاج محمود، والادارة (المخترة) لآل النجار المهادين للانجليز (وكانه يشير للحسيني والنشاشيبي في القدس).

اما من حيث شخصيات الرواية، فيؤكد الكاتب في ملاحظاته في مقدمة الرواية (كما اعتاد بقية الروائيين الواقعيين) ان " اسماء الشخصيات والعائلات غير حقيقية، واذا ورد تشابه بينها وبين شخصيات حقيقية، فذلك بمحض الصدفة " (ص5)، واعتقد انا ان هذه التقنية (الاسماء الوهمية) تسهّل على القارئ ان يسقط شخصيات الرواية على الشخصيات الحقيقية التي يعرفها وتشبه شخصيات الرواية، مع ان الكاتب أورد في الرواية، بعض الشخصيات المناضلة، أو " القيادات " المناضلة أو المتعاونة مع المحتل، كانت اسماؤها حقيقية، وهي مدونة في كتب التاريخ، كما هي مخزونة في الذاكرة الشعبية .

وعل كل لم يكن الكاتب حريصا على تواصل السرد حسب تواصل الاحداث، فأحيانا يأتي بنتائج الحدث (انجاب خالد ويسمين لابنتهم فاطمة)، ثم في فصل لاحق يأتي على احداث عرسهما، ليأتي بعد ذلك بفصل للحديث عن جبهما(ص ١١١-١١٤)، وذلك يذكرنا بتقنية "فلاش باك" في الافلام السينمائية.

كما ان الكاتب ابداع في "أنسنة" الخيول الاصيلة والجمال، فكما "أنسن" " الحمامة " (المهرة) في تعاملها مع خالد وطارق في بداية الرواية، "أنسن" مع ريحانة "الادهم" حسان زوجها (ص٩١)، و"أنسن" الجمل في تعامله مع فاطمة بنت خالد (ص١٩٩)، وان كان بالغ في "انسنة" هذه الحيوانات الثلاث.

وما يورده الكاتب من حكم على لسان شخصيات روايته يذكرني بشعر ابي الطيب المتنبي الذي ملأ شعره حكما مازالت سائرة على ألسنة الناس. ومن حكم روايتنا هذه:

ما قاله الحاج محمود لابنه خالد (ص ٢٨) "المرء لا يستطيع ان يفقد شيئا هو في الاصل لغيره، والا سيعذب نفسه مرتين: مرة بجهله، ومرة بفقدان ما ليس له". وما قاله الحاج حسني لاهل "الهادية" (ص ٢٣) "ثلاثة انواع من الخدمة لاتعيب الرجل: خدمته لبيته، وخدمته لفرسه، وخدمته لضيفه"، وما اعتاد خالد على تكراره في مراحل الثلاث: يوم كان شابا يافعا، ويوم صار ابا، وحتى عندما صار جدا، وفي "ابواب" الرواية الثلاث. وهذه الحكمة هي: "انا لا اقاتل كي انتصر، بل كي لا يضيع حقي".

الهوامش

١- "فيليب فان تيغيم"، المذاهب الادبية الكبرى في فرنسا"، ترجمة "فريد انطونيوس"، منشورات "عوييدات"، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٤٠.

٢- الرواية، ص ٥.

٣- ذكره صلاح فضل في كتابه "منهج الواقعية في الابداع الادبي"، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٠، ص ٣٣، ٣٤.

٤- جميل سلحوت (الحوار المتمدن)

ملف

" في الذكرى العاشرة لفتوى محكمة العدل الدولية

حول الجدار في الأرض الفلسطينية المحتلة "

ندوة نظمتها مؤسسة ياسر عرفات